

المحاضرة الثانية:

مرجعيات الأدب الصوفي الجزائري¹:

يعتبر الكثير من النقاد والمؤرخين نصوص أدب الزهد إلى غاية نهاية النصف الأول من القرن (6 هـ - 12 م) لم تكن ترقى إلى مستوى يسمح بإدراجها ضمن أدب التصوف إلا بعد أن شهد المغرب الأوسط خلال النصف الثاني من نفس القرن دخول مجموعة من المصنفات الصوفية المشرقية والأندلسية والمغربية في فترات زمنية يصعب ضبطها ضبطا دقيقا مع فقهاء والعلماء العائدين من المشرق أو بواسطة صوفية المغربين الأدنى والأقصى الذين استقر بهم المقام بحواضر المغرب الأوسط² أو مع الأندلسيين المهاجرين إلى بجاية وتلمسان بقصد تجديد أنفاس الرحلة ذهابا وإيابا أو بغرض الاستقرار وكان لهؤلاء دور بارز في شرح وتبسيط محتوياتها لجمهور الطلبة والمهتمين³.

1. المصنفات المشرقية:

تعد كتب (الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ - 858 م) وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ت 3 هـ - 9 م) والرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري (ت 465 هـ - 1072 م) وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ - 1111 م)) من أكثر المصادر المشرقية والمغربية والأندلسية التي نهلت منها أدب التصوف أفكاره. وهي مصنفات في التصوف السني تطرح الخطوات التي يقطعها السالك بواسطة المجاهدات للوصول إلى النجاة من عقاب الله كما حددها المحاسبي⁴ وإلى تقويم النفس وتهذيبها عن طريق الإرادة والرياضة لبلوغ بها مرتبة الأنبياء والصدّيقين والصلحاء⁵ ثم النزوع إلى الكشف عن عالم الغيب وهي مرحلة فراغ القلب عما سوى الله كما تبينها الرسالة القشيرية وإحياء علوم الدين⁶، وقد أصبحت هذه المصنفات منذ النصف الثاني من القرن (5 هـ - 11 م) متداولة بين القراء في حلقات الدرس الصوفي في الجزائر منها: تلمسان وبجاية وقلعة بني حماد حيث كان الصوفي عبد السلام التونسي (ت 486 هـ - 1093 م) يدرس برابطته بتلمسان "رعاية" المحاسبي⁷، ويدعو في أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، إلى قراءة "إحياء علوم الدين" وقد أفصح في تحسيس الوسط الفكري في تلمسان بأهمية "الإحياء" وقيمة أفكاره الصوفية وبهذه الطريقة شرع التلمسانيون في نسخ "الإحياء" وحفظه⁸، وبقلعة بني حماد انتصب الصوفي أبو الفضل ابن النحوي (513 هـ - 1119 م) مدرسا للإحياء واستنسخه في ثلاثين جزءا فإذا دخل شهر رمضان قرأ كل يوم جزءا⁹ ولشدة تمسكه بالإحياء نقل عنه قوله: (وددت أني لم أنظر في عمري سواه)¹⁰، واستطاع أن يؤلف من حوله كوكبة من القليعيين ينهجون أفكاره الغزالية¹¹ وكذلك

في بجاية التي حل بها أبو مدين شعيب (ت 594 هـ - 1189 م) منذ (559 هـ - 1163 م) ومكث بها خمسة عشرة عاما جعل من كتاب "إحياء علوم الدين" أفضل كتب التذكير لديه وأكثرها قراءة في مجلس تذكيره كما درس الرسالة القشيرية وأطلع الطلبة على "رعاية" المحاسبي¹². أما معاصره أبو علي الحسن بن علي المسيلي المتوفى في أواخر القرن (6 هـ - 12 م) فقد نسج على منوال "الإحياء" كتاب (التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات)¹³ أحاط فيه بالفقه والتصوف حتى لقب بأبي حامد الصغير وأضحى الكتاب متداولاً بين البجائيين وغطى بشهرته شهرة "الإحياء" آنذاك¹⁴ وفي أواخر القرن (5 هـ - 11 م) وأوائل القرن (6 هـ - 12 م) هاجر من تلمسان وجزائري مزغنة كوكبة من الأطر الزهدية إلى الأندلس للتمدرس عن كبار صوفيتها إذ قصد كل من المحدث يوسف بن علي بن جعفر التلمساني والفقير حجاج بن يوسف الجزائري أشبيلية. وأخذوا بها "الإحياء" عن القاضي أبي بكر بن العربي (ت 543 هـ - 1148 م)¹⁵ بينما قصد كل من الفقيه أبي الحسن بن أبي القنون (ت 557 هـ - 1162 م) والزاهد أبي موسى عيسى بن حماد الأوربي ويعقوب بن حمود التلمساني مرسية. وأخذوا بها عن القاضي أبي علي الصديقي (توفي في النصف الأول من القرن 6 هـ) (33) وأخذوا عنه (آداب الصحبة للسلمي) و(رياض المتعلمين) و(حلية الأولياء) لأبي النعيم الأصفهاني ولما عادوا إلى مواطنهم عملوا على نشرها بين الطلبة والمريدين.

المصنفات المغربية والأندلسية:

كما شكلت مصنفات المغرب الأقصى أهمية كبيرة في بلورة أفكار الأدب الصوفي وصنع مخياله من خلال مؤلفات أبي محمد صالح الماجري (ت 631 هـ - 1234 م) شيخ رباط أسفي التي دخلت بجاية وقلعة بني حماد مع الصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي توفي في النصف الثاني من القرن (7 هـ - 13 م) وهي كتاب (بداية الهداية)¹⁶ و(تلقين المريد) وشرح المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي وشرح الرسالة القشيرية فضلا عن كتاب (قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء الصديقين) لعبد الرحمان بن يوسف البجائي في النصف الثاني من القرن (6 هـ - 12 م) وإسهامات أبي زكريا يحيى بن محجوبة القرشي السطيفي (ت 673 هـ - 1278 م) من خلال كتابه شرح أسماء الله الحسنى.

في حين شكلت حركة هجرة صوفية الأندلس إلى المغرب الأوسط على مدار القرنين (6 و7 هـ - 12 و13 م) عاملاً رئيسياً أدى إلى دخول المصنفات الصوفية ورواجها. فألف عبد الحق الأشبيلي (ت 581 هـ - 1185 م) ببجاية مجموعة من المؤلفات الزهدية أبرزها كتاب (الزهد) وكتاب (الصلاة والتهجد) وكتاب (أشعار زهدية في أمور الآخرة) فضلاً على كتابه (العاقبة في ذكر الموت)¹⁷ وقد ضلت

مؤلفات عبد الحق الأشبيلي خاصة كتابه (العاقبة..) مصدرا زهديا نهل منه الصوفية واعتمده مرجعا في كتاباتهم حيث اعتمد عليه عبد الرحمان الثعالبي (ت 875 هـ - 1475 م) في تأليف كتابه (العلوم الفاخرة) ، ولما اضطرت أوضاع الأندلس بفعل نشاط الثوار الطامعين في الحكم وتعاضم نشاط حركة الاسترداد المسيحي التي بلغت أوجها عام (633 هـ - 1236 م) بشرق الأندلس تقاطر أعلام الأندلس فرارا نحو بجاية وتلمسان وحملوا معهم مصنفات التصوف فادخل أبو الحسن عبيد الله النفزي الشاطبي (642 هـ - 1224 م) مختصره على حلية الأولياء لأبي النعيم وعمل على تلقيه للطلبة. وكذلك درس ابن السراج الأشبيلي (ت 675 هـ - 1277 م) قوت القلوب لأبي طالب المكي والإرشاد لأبي المعالي وبسط مضامينهما للطلبة فضلا على تلقين أبي العباس أحمد بن أحمد المالقي (ت 660 هـ - 1261 م) للطلبة كتاب الإرشادات والتنبيهات لابن سينا هذا الكتاب الذي يتضمن فلسفة التصوف الإشرافي أصبح له قراء ببجاية.

ناهيك عن تلقين أبي العباس أحمد بن عجلان القيسي (ت 675 هـ - 1277 م) لجمهور العامة طرق ومناهج الصوفية والصالحين ... وإلى جانب هذا الدور قاموا بإدخال إنتاجهم الصوفي إلى بجاية وتلمسان ونجحوا في تشكيل اتجاهات صوفية لم تكن معروفة بالمرّة في المغرب الأوسط فبالنسبة للصوفي محي الدين بن عربي (ت 638 هـ - 1240 م) الذي يصمم بعض الباحثين إدراج مؤلفاته ضمن قائمة المصنفات التي أدت دورا بارزا في نشأة اتجاه وحدة الوجود في المغرب الأوسط من منطلق تأليفه لكتاب (مواقع النجوم) بالمرية قبل دخوله بجاية ومن زاوية تعليق فقيه بجاية أبو العباس أحمد الغبريني عليها في قوله: (وفيهما ما فيها فإن قيظ الله من يسامح ويسهل ويتأول الخير سهل المرام ويسلك فيه سبيل الأفاضل الكرام. وإن كان ممن ينظر بحسب الظاهر ولا يسامح في نظر ناظر فالأمر صعب والمرتقى وعر) أما تلمسان فنزل بها الزاهد أبو عبد الله بن عبد الرحمان التجيبي (ت 610 هـ - 1214 م) منذ عام (574 هـ - 1188 م) وأثرى الأدب الصوفي بمؤلفات أبرزها كتاب (الأربعين في الفقر وفضله) وكتاب (الحب لله) كان يدرسها على الطلبة والمريدين وفي مضمونها دعوات إلى ترغيب النفوس في ترك الدنيا وحب الله والإقبال على التصوف لما فيه من فضائل ومزايا مستعملا في تبليغ هذه الأهداف الروحية أسلوب الوعظ والتذكير على طريقة شيخه الزاهد عبد الحق الأشبيلي (ت 581 هـ - 1185 م) وهناك من الصوفية من اضطربهم طبيعة المناخ الفكري السائد في الأندلس إلى مغادرتها نحو تلمسان ومن هؤلاء أبو إسحاق بن دهاق المعروف بابن المرأة (ت 610 هـ - 1214 م) مؤلف كتاب (شرح أسماء الله الحسنى) وشرح كتاب (محاسن المجالس) لأبي العباس بن العريف (ت 536 هـ - 1141 م) وكذلك أدى وجود الصوفيين أبو محمد عبد الحق

المعروف بابن سبعين (ت 669 هـ - 1270 م) وتلميذه أبو الحسن علي الششتري (ت 668 هـ - 1269 م) في بجاية منذ سنة (624 هـ - 1227 م) إلى انتشار مؤلفاتهما وتواشيحهما وأشعارهما في الوحدة المطلقة بين نخبة من طلبة بجاية. ومن أشهر مؤلفات ابن سبعين (بدء العارف) و(عقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف) وكتاب (لمحة الحروف) وكتاب (كنز المغرمين في الحروف والأوقاف) ورسائل عبارة عن نصائح صوفية، أما الششتري فقد ألف (المقاليد الوجودية والرسائل القدسية في توحيد العامة والخاصة) و(المراتب الأسمائية) و(ديوان شعر)

وبعد هذا العرض لمصادر الأدب الصوفي بالمغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين 12 و13 الميلاديين يتضح حسب رأي الطاهر ونابي أنّ كل محاولة لفهم نصوص الأدب الصوفي المنظوم والنثري بدون العودة إلى هذه المصادر هي محاولة يائسة لا يمكنها أن تؤدي إلى الوقوف على خصوصيات أدب التصوف بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط. بل أن كل الأدب الصوفي الذي أنجز بعد نهاية القرن السابع الهجري 13 الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الهجري 15 الميلادي استقى كل خصائصه وأفكاره من هذه المرحلة المتطورة من عمر أدب التصوف بالمغرب الأوسط.

المصادر والمراجع: (الإحالات):

¹ استقت مادة هذه المفردة في مجملها من بحث الأستاذ: الطاهر بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط، مجلة حوليات التراث، العدد 2، 2004، جامعة المسيلة، الصفحة 20 وما بعدها. (مع بعض التصرف والرجوع الفعلي للمصادر والمراجع التي اعتمدها الطاهر بونابي).

